جامعة السلطان مولاي سليمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بني ملال

محاضرات في مادة:

التاريخ الجهوي:

قضايا وتجارب

لفائدة طلبة شعبة التاريخ والتراث والحضارة
الفصل السادس

إعداد الأستاذ:
محمد العروصي

السنة الجامعية:
2022/2021

التصميم:

I. **التنظيم الاجتماعي وحركة الهجرة.**
1) الاشكالية
2) الهجرة والبنية الاجتماعية
3) الأسباب

II. **الاحلاف القبلية والسياسة المخزنية**
1) الاحلاف القبلية
2) الاقتصاد الرعوي
3) السياسة المخزنية

III. **المخزن والزوايا: المولى سليمان وزاوية امهواش نموذجا**
1) نفوذ الزاوية
2) العلاقة بين المخزن والزاوية

IV. **التشريع العرفي والحركة الوطنية**
1) السياسة البربرية
2) ردود الفعل

I. التنظيم الاجتماعي و حركة الهجرة.

من بين الظواهر التي اثيرت حولها الكثير من التساؤلات ظاهرة الهجرة الجماعية للسكان واثرها في تغيير الخارطة السكانية، نمط العيش، اللباس، الغذاء، العادات ، التقاليد، اللغة....الخ

وبطبيعة الحال فان الهجرة تمت من مجالات جغرافية نحو اخرى، اي انها لها مضمون جغرافي بالإضافة الى المضامين الاخرى الاتنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. الا ان حركة الهجرة لم تتوقف ولكن الهجرات الكبرى وقعت، عبر فترات تاريخية معينة عبر اتجاهات محددة:

-من الشرق الى الغرب

. هجرة العسكريين اثناء الفتوحات الاسلامية

. هجرة التجار والعلماء والمعارضين للحكام بالمشرق

. هجرات قبلية كالهجرة الكبرى لبني هلال وبني سليم وبني معقل

-هجرة الاندلسيين الى العالم الاسلامي ومنه المغرب

- هجرة القبائل الصحراوية من الجنوب إلى الشمال عبر جبال الاطلس وصولا الى السهول الاطلسية

-هجرة سكان الجبال في اتجاه الواحات والسهول (آيت عطا)

- هجرة سكان الريف نحو زرهون وسايس والجزائر

- هجرات لفخدات وعائلات وافراد من مجال جغرافي لآخر

- هجرات اثناء الكوارث الطبيعية مثل المجاعات والاوبئة

لهذا ومن الناحية المنهجية ينبغي التمييز، بالاعتماد على المصادر والوثائق وكذا الدراسات بين مختلف انواع الهجرات وظروفها وصيرورتها وانعكاساتها:

- الهجرات القبلية

- هجرات الوحدات الاجتماعية (فخدة، دوار، عظم/ ايغص....الخ)

- هجرة العائلات

- هجرة الافراد

- واخيرا هجرات بسبب النزاعات والحروب

وتساعد عملية التمييز على فهم الاسباب والمجريات وكيفية استقرار السكان في مجال جغرافي محدد لتحديد المكونات البشرية للخارطة السكانية وصيرورة العلاقات بين الساكنة القديمة والعناصر الطارئة اي الوافدون الجدد، وكيفية تملك المجال عبر التفاهم او الصراع ومن تم استغلال المجال بالتفاهم عبر تدخل وسطاء (زوايا، شرفاء، جماعات...الخ) وعقد عهود ومواثيق.

وفي هذا الاطار ميز الانتربولوجيون بين مبداين اجرائين لدراسة المجتمعات القبلية:

- تقسيم المجال
- الانتماء السلالي

ويختلف تفاعل هذين المبدأين حسب مجموعة من العناصر من أهمها:

- طبيعة المجال (صحراء، جبال، دير، هضاب، سهول داخلية أو ساحلية) لأن لكل وحدة جغرافية خصائص ومميزات تؤثر على سلوك الفرد والجماعة، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا، دون الذهاب الى حد القول بالحتمية الجغرافية
- نمط العيش: الاستقرار، الترحال، الانتجاع وما يفرضه من عادات وتقاليد

بطبيعة الحال وفي مختلف الدراسات ميز الباحثون بين مختلف مستويات التنظيم الاجتماعي:

-الاتحاديات القبلية

- القبيلة
- الفخدة
- الدوار
- العظم
- الاسرة

اثناء دراسة المستويات توصل الباحثون الى مجموعة من النتائج من بينها، تجدد الساكنة بسبب حركة الهجرة، اي بعبارة اخرى أن اسماء القبائل هي اسماء تاريخية واطار تنظيمي لساكنة ذات اصول مختلفة.

في هذا الصدد أورد أحمد التوفيق ما يلي:

" وقد شكك بيرك في ان يكون للمضمون القبلي وجود واقعي يتعدى رمزية لغوية تمثلها هذه الاسماء الوسطوية لمجموعات القبائل. وتبنى العروي هذا الشك واستخلص من احدى المناقشات البارزة في كتابه عن تاريخ المغرب الكبير ان البنية القبلية ليست اصيلة، ولكنها عاقبة اجتماعية وسياسية لضغوط الوجود الروماني في شمال افريقيا، حيث رجع المستقرون الى الترحل وتمثل ذلك في البنية القبلية، وفي تقسيماتها التي ليست سوى صياغة اديولوجية وجواب على حصار تاريخي". نفس الاستنتاجات توصل اليها رايموند جاموس Raymond jamous في دراسته حول البنيات بمنطقة الريف حيث استخلص أن:

- البنية القبلية هي بنية مفتوحة بسبب الهجرة سواء من داخل الريف او خارجه باستقبال الوافدين الجدد

-اسباب الهجرة متعددة طبيعية وسياسية واجتماعية

- اندماج المهاجرين بواسطة الحماية من طرف رئيس عظم

- التضامن بين المهاجر والمستقبل في جميع الحالات مع احترم شديد للاعراف.

كان المهاجرون يستقرون بالمجال عبر اشكال مختلفة حسب طبيعة الهجرة عن طريق الحرب او الاتفاق او الطقوس (الذبيحة، تاضا،....الخ). فضرورة وحتمية التعايش تفرض التفاهم عبر نسج علاقات اجتماعية والاستغلال المشترك لموارد المجال من اراضي زراعية ورعوية ومياه وعلاقات تجارية عبر الاسواق والمواسم. لذا فان الاسواق والمواسم لم تكن وظيفتها تجارية محظة بل كانت كذلك سياسية واجتماعية حيث يتم فظ النزاعات واقامة التحالفات. ومع مرور الزمن الاشتراك في المقدس لدوره الكبير في التوازن الاجتماعي.

وفي نفس السياق اكد جاك بيرك في دراسته حول البنيات في الاطلس الكبير ان الفرد المهاجر لا ينتمي فعلا الى القبيلة الا عندما يتملك الارض وهي صيرورة جد معقدة. واستنتج بيرك ان اغلبية عظام سكساوة تتكون من مهاجرين قادمين من الجنوب، حيث لا يوجد بسكساوة الا بعض العائلات الاصلية.

أما اميل لاوست فقد اظهر ان خيام المنتجعين بالاطلس المتوسط والتي شكلت السكن الوحيد لقبائل زمور الى غاية بداية القرن العشرين دليل دامغ على اصل السكان. لان الخيمة هي الشكل الاساسي للسكن في السهوب والمناطق الصحراوية ووجودها في اعالي الجبال يتعارض مع المناخ.

واكد بول باسكون في دراسته حول حوز مراكش الحاجة الملحة للجماعات للسواعد البشرية لتقوية نفوذها واستغلال المجال لمجموعة من الاسباب:

- التراجع الديمغرافي بسبب المجاعات والاوبئة

- ضعف التقنيات المستعملة ومن هنا الضرورة الملحة للسواعد لاستغلال المجال وانجاز مختلف الاشغال

- تلبية الكلف المخزنية

- اكتساب قوة للدفاع عن المجال

ختاما يمكن القول فان موضوع الهجرة والخريطة السكانية يطرح الكثير من التساؤلات تتجاوز حركة الهجرة والتوزيع السكاني الى البنية القبلية وانماط العيش واستغلال المجال ومختلف انواع العلاقات بين السكان.

II. الاحلاف القبلية والسياسة المخزنية

منذ آواخر القرن الرابع عشر عرف المغرب أزمة عميقة تجلت أساسا في ضعف السلطة المركزية المرينية الأمر الذي شجع الايبريين على غزو المغرب وخاصة المناطق الساحلية. فقامت اسبانيا والبرتغال باقتسام الشواطئ وتحديد مناطق النفوذ، فتوالت عمليات الاحتلال، حيث تم احتلال جل المدن الشاطئية بل إن البرتغاليين بسطوا نفوذهم على منطقة دكالة[1]. وكان لهذه الأزمة انعكاسات اقتصادية وسياسية واجتماعية ودينية شملت مجموع الأقاليم المغربية ومن بينها المناطق الجنوبية الشرقية ومنطقتي الأطلس الكبير والأطلس المتوسط.

أدى الاختلاف التضاريسي والمناخي بين الواجهة الصحراوية والمناطق الجبلية إلى نشوء روابط اقتصادية بواسطة التبادل والانتجاع وروابط بشرية بفعل الامتداد الديمغرافي للقبائل بشكل لا يتطابق مع التقسيم الجغرافي، وروابط اجتماعية نتيجة العهود والمواثيق والمقدسات المشتركة، والتأطير الديني للزوايا. إلا أن هذه الروابط كانت معرضة للاهتزاز وأحيانا للتدهور خاصة خلال الأزمات التي غالبا ما تكون لها انعكاسات سلبية تشمل مجموعة المنطقة.

فمن بين نتائج أزمة القرن الخامس عشر تدهور النظام التبادلي وارتفاع حدة الضغوط القبلية وخاصة المعقلية[2]، وظهور أحلاف قبيلة مثل حلف آيت عطا وآيت يفلمان وارتفاع وتيرة الهجرة، الأمر الذي أدى إلى تغيير الخارطة السكانية وإلى خلق واقع اقتصادي واجتماعي جديد حدد طبيعة العلاقة بين مختلف الوحدات الاجتماعية من جهة والمخزن من جهة أخرى، بل إن مختلف التطورات أدت إلى إفراز كيان سياسي صنهاجي وهو الزاوية الدلائية التي شمل نفوذها منطقة الأطلس المتوسط والكبير والواجهة الصحراوية بالإضافة إلى تادلا وسايس[3].

منذ هذه الفترة، احتلت هذه المنطقة صدارة الأحداث وأصبحت تحدد طبيعة السياسة القبلية للمخزن المركزي الهادفة إلى إخضاع سكان المناطق الجبلية أو على الأقل محاصرتهم واحتوائهم. ومن هنا ارتأينا التطرق إلى ثلاثة نقط، كمحاولة بسيطة لفهم التكتلات القبلية وعلاقتها مع المخزن خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر:

1 انظر دراسة بوشرب أحمد، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأمور (قبل 28 غشت 1481_ أكتوبر 1541)، الدار البيضاء، 1984.

2 أشار الحسن بن محمد الوزان في كتابة وصف إفريقيا المؤلف حوالي 1510 إلى الضغوط التي كانت تمارسها القبائل المعقلية خلال هذه الفترة بالمنطقة الجنوبية.

3 حجي محمد، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، الرباط، 1984.

الأحلاف القبلية: نموذجي آيت عطا وآيت يفلمان-
-الاقتصاد الرعوي وحركة الهجرة
-السياسة المخزنية

1) الأحلاف القبلية : حلف آيت عطا وآيت يفلمان

ارتبطت منطقة الجنوب الشرقي، أي منطقتي درعة وتافيلالت ارتباطا عضويا بالمناطق الجبلية المشرفة عليها وخاصة جبل صاغرو والأطلس الكبير الشرقي مجال القبائل الصنهاجية، التي ارتبطت بدورها بقبائل الشمال لامتدادها الديمغرافي وعلاقاتها المتنوعة مع مختلف الوحدات الاجتماعية القاطنة بالسفح الشمالي لجبال الأطلس، أو ما يسمى أهل الظل، آيت أومالو.

لازدهار التجارة القفلية وخاصة تجارة الذهب، فقد لعبت منطقة الجنوب أي الواحات والواجهة الصحراوية دورا اقتصاديا هاما شبهه كثير من الباحثين بالدور الذي لعبه البحر في الحضارة الأوربية. ونظرا للأهمية الاستراتيجية والاقتصادية، فقد ورد ذكر أوصاف المنطقة وأحداثها التاريخية لدى الجغرافيين والرحالة والمؤرخين.

تشير مصادر العصر الوسيط إلى أن منطقة الواحات والأطلس الكبير الشرقي وجبل صاغرو كانت تقطنها قبائل مستقرة وقبائل رحل، أي أنها مجال الخيام والقصور المحصنة. وكانت تعتمد في نمط عيشها على الفلاحة وتربية الماشية والتبادل، بالإضافة إلى الحرف المتمركزة في القصور والمدن كمدينة سجلماسة: الصناعات النسيجية، صناعة الجلود، وصناعة الآواني وخاصة النحاسية .

لاختلاف الظروف البيئية بين المناطق الصحراوية الرملية والمناطق الجبلية الوعرة ومنطقة الواحات، ظهرت تيارات تجارية بين الوحدات الجغرافية الثلاث. فقد أشار ابن حوقل خلال القرن العاشر الميلادي إلى وجود تيار تجاري بين الأطلس الكبير والواحات، وذكر في كتابه وصف إفريقيا، أن أصواف وجلود الأطلس الكبير كانت تغذي صناعة النسيج والدباغة بسجلماسة، ونفس العلاقة أوردها الحسن بن محمد الوزان في بداية القرن السادس عشر[4].

أما الانتاج الفلاحي، فكان يتكون من القمح والشعير والتمور ومواد حيوانية كالأصواف والجلود. وأدى النقص في بعض المواد (الأصواف والجلود بالنسبة لسكان القصور، التمور والحبوب

4 يعتبر ابن حوقل الوحيد، من بين جميع كتاب القرنين التاسع والعاشر، الذي زار منطقة تافيلالت واستقر بها فترة من الزمن. أما الآخرون الذين أوردوا أوصافا حول المنطقة فقد تم استقائها من الرحالة والمسافرين أو المصادر السابقة لعهدهم.
Mezzine, Larbi, Le Tafilalt. Contribution à l'histoire du Maroc aux XVIIè et XVIIIè siècles, Publication de la faculté des lettres et des sciences humaines, Rabat, 1987, N.I.,2, p.21

بالنسبة للرحل وسكان المناطق الجبلية)، والفائض في مواد أخرى إلى ظهور تيارات تجارية بين سكان الواحات وقبائل الأطلس الكبير الشرقي[5]. ولهذا ارتبط النشاط التجاري ارتباطا وثيقا بحاجيات السكان لسد النقص الحاصل في المواد الغذائية وتمويل الصناعات بالمواد الخام، فالعلاقة بين السكان والتجارة هي علاقة عضوية .

بحكم انطلاق أهم الطرق التجارية الرابطة بين المغرب والسودان من منطقتي درعة وتافيلالت ونظرا لازدهار التجارة القفلية، فقد اندمج سكان المنطقة في النظام التبادلي بين السودان والمدن الرئيسية، سواء الداخلية كفاس ومراكش أو المدن الساحلية، كأكادير وأسفي وأزمور وسلا ...الخ مراكز تسويق مختلف المواد للأوربيين.

بما أن تربية الماشية شكلت المورد الرئيسي لسكان الجبال، فقد كانوا يتنقلون بقطعانهم نحو النجود الصحراوية الأقل برودة في فصل الشتاء. إلا أن هذه المنطقة عرفت تحولا في خارطتها السكانية بوصول القبائل المعقلية خلال القرن الثالث عشر. فخلال هذه الفترة وإلى غاية القرن الرابع عشر، اندمج الوافدون الجدد في النظام الاقتصادي. وبحكم تربيتهم للجمال وانتشارهم تدريجيا بالمنطقة الممتدة من الجنوب إلى مشارف نهر السنغال، فقد استفادوا بدورهم من التجارة القفلية كتجار ومرشدين وحماة للقوافل. وهذا الفائض المالي الناجم عن التجارة كان له أثر كبير في استقرار الأوضاع.

إلا أن أزمة القرن الخامس عشر، المتمثلة في تدهور السلطة المرينية والاحتلال الايبيري للسواحل المغربية، أدت إلى خنق البلاد اقتصاديا وإلى تدهور المبادلات مع الخارج سواء مع السودان أو مع أوروبا عبر الموانئ التي تم احتلالها من طرف الاسبان والبرتغال. ما هي انعكاسات الأزمة على المنطقة؟ وكيف أدت إلى ظهور الأحلاف القبلية؟

من النتائج المباشرة للأزمة تدهور النظام التبادلي، ومن علامات هذا التقهقر اختفاء مدينة سجلماسة[6] التي ظلت طيلة العصور الوسطى العاصمة العالمية للذهب بل اتخذت طابعا أسطوريا في الكتابات الشرقية. ففي سنة 1399 غادر السكان المدينة وتفرقوا في قصور منطقة تافيلالت. اختفاء المدينة ارتبط بتدهور الطريق التجاري الرئيسي المنتهي إلى السودان مما أدى إلى تقلص حجم

5 El Bekri, Description de l'Afrique Septentrionale, trad. de Slane, Paris, 1965,p.281

6 تشير أغلبية المصادر والدراسات إلى اختفاء مدينة سجلماسة في آواخر القرن الرابع عشر رغم انها كانت خلال القرون السابقة أهم مدينة تجارية تربط المغرب بالسودان بل اعتبرتها جاك مونيي العاصمة العالمية للذهب في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

Meunié, J., Le Maroc saharien des origines à 1670, Paris; 1982, T.1, p.222

المبادلات. فالطرق تؤدي إلى ظهور المدن والمدن تؤدي بدورها إلى ظهور الطرق كما يقول فرناند بروديل[7].

باختفاء الفائض المالي الناجم عن التجارة تدهورت الأوضاع الاقتصادية، وعانى السكان من جراء الأزمة، فاضطرت ساكنة المنطقة إلى الاعتماد على إمكانياتها الذاتية غير الكافية لانعدام التوازن بين الديمغرافية والواقع الاقتصادي الجديد، وأول المتضررين من هذا الوضع هم القبائل المعقلية التي نضبت مواردها بتقلص عائدات التجارة. من النتائج المباشرة هجرة بعض القبائل نحو الشمال عبر ممرات الأطلس خاصة بني حسن وزعير واندلاع سلسلة من النزاعات حول الأراضي والمياه والمراعي بين الرحل والمستقرين، الأمر الذي عمق من حدة الأزمة. وقد أشار كل من ابن خلدون ومحمد بن الحسن الوزان إلى الضغوط التي مارستها القبائل المعقلية على سكان الواحات والمتمثلة في فرض الإتاوات وانتزاع الأراضي، حيث استقرت مجموعة من الفصائل بواحات درعة وتافيلالت، بينما هاجرت أخرى في اتجاه الشمال[8]. في خضم هذه الأوضاع اضطرت قبائل جبل صاغرو والأطلس الكبير الشرقي، لضمان أمنها الغذائي وتأمين مجالاتها الرعوية الحيوية، إلى تكوين حلف قبلي جديد عرف باسم آيت عطا.

إذا رجعنا إلى مختلف المصادر وخاصة ابن خلدون الذي يعتبر كتابه العبر سجل حقيقي للقبائل، فإنه لا يذكر آيت عطا. وكذلك الشأن بالنسبة لمحمد بن الحسن الوزان. وأول ذكر ورد عند مارمول، أي حوالي سنة 1570، عندما تحدث عن وجود إقليم كبير بجوار تافيلالت يسمي إطاطا Ytata .

حسب دراسة العربي مزين حول تافيلالت، فقد ارتبط ظهور الحلف بالضرورة التي ظهرت لدى قبائل جبل صاغرو خاصة آيت واحليم وآيت اسفول، لبناء مخازن جماعية للحبوب،إغرم أمزداغ. وانضم لهذا الحلف قبائل أخرى من الأطلس الكبير الشرقي، قبيلتي آيت حديدو وآيت مرغاد[9]. إلا أن ظاهرة بناء المخازن الجماعية، لم تقتصر على جبل صاغرو بل عمت مجموع منطقة الأطلس الكبير وجزء من الأطلس المتوسط، بهدف تأمين المواد الغذائية الأساسية.

هكذا يظهر أن حلف آيت عطا، تكون خلال القرن السادس عشر نتيجة للأزمة العميقة الناجمة عن ضعف السلطة المركزية، والاحتلال الايبيري للسواحل المغربية وما نجم عن ذلك من تدهور للمبادلات التجارية سواء الداخلية أو الخارجية واضطراب الأوضاع باندلاع النزاعات بين القبائل حول

7 Braudel, F., La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris, 1985, T. II, p.45
8 Léon l'Africain, Description de l'Afrique, Trad. Epaulard, Paris, 1956, p.427, 429
9 Mezzine, L., op. cit.,p.276-277

الأراضي والمراعي والمياه، فكان تحالف آيت واحليم وآيت اسفول وآيت حديدو وآيت مرغاد تكيفا مع الظروف الجديدة. وبناء المخازن الجماعية "إغرم أمزداغ" هو تعبير عن حاجة القبائل لتأمين حاجياتها الغذائية والدفاع عنها إذا اقتضى الحال[10].

إلا أن حلف آيت عطا حدث فيه تصدع، عندما اندلع نزاع بين آيت واحليم وآيت اسفول من جهة وآيت حديدو حول مراعي منطقة أمدغوس، فخرج آيت حديدو وآيت مرغاد من الحلف وكونوا حلفا مضادا، سمي حلف آيت يفلمان الذي ورد ذكره في إحدى وثائق زاوية آسول سنة 1645 م. واتسع الحلف فيما بعد ليشمل آيت يزدك وآيت يحيى وعرب الصباح[11]، وهكذا اندلعت سلسلة من التحالفات شملت الأطلس الكبير والأطلس المتوسط. فاتحادية آيت أومالو،المشكلة خلال القرن السابع عشر من بني مكيلد واشقرن وآيت حديدو وآيت اسحاق وآيت لحسن، اتسعت تدريجيا لتضم آيت اسري وآيت سخمان.

مما لا شك فيه أن الأحلاف القبلية، هي استجابة وتكيفا حيويا مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، مما أضفى عليها حركية وجعلها في تغير مستمر موازاة مع تغير الأحوال، ومن هنا لابد من التساؤل ولو مرحليا، عن الثوابت والمتغيرات في حياة القبائل. من بين الثوابت، اعتماد قبائل الأطلس المتوسط والأطلس الكبير الشرقي على الرعي والترحال، أي أن رأسمالها هو بالأساس رأسمال متحرك يفرض على مالكه التنقل باستمرار عبر إيقاع تحدده فصول السنة وحسب العهود والمواثيق لاستغلال المجالات الرعوية بالمناطق السهلية والنجود الصحراوية، بل إن بعض القبائل تضطر تحت ضغط الظروف إلى مغادرة مواطنها الأصلية للاستقرار بمناطق جديدة. ولهذا فإن الانتجاع وحركة الهجرة حدد طبيعة العلاقة بين الانسان والأرض، وبين مختلف الوحدات الاجتماعية والمخزن، بل شكل محور الحياة الثقافية والدينية.

2) الانتجـــاع وحركـــة الهجـــــرة

حددت الظروف الطبيعية ونمط عيش السكان القائم أساسا على تربية الماشية التحرك سنويا نحو المناطق الصحراوية والمناطق السهلية. عندما تشتد البرودة وتتساقط الثلوج ويقل الكلأ، تضطر قبائل الجبال للانتقال للمراعي الشتوية، كما أن القبائل السهلية والصحراوية تنتقل بقطعانها نحو

10 Ibid., p.277
11 Ibid.,279

المراعي الصيفية الجبلية. أدت حركة التنقل الموغلة في التاريخ إلى عقد عهود ومواثيق لاستغلال المراعي المشتركة (أكدال) .[12]

لهذا فإن وجود الزوايا في المناطق الرعوية ضرورة حيوية للسكان لإيجاد حلول لمشاكلهم المتعلقة بالانتجاع والسهر على الاستفادة المشتركة بإقامة تحالفات غالبا ما يتم تمتينها بطقوس كطادا (الرضاع). فالزوايا لعبت دورا رئيسيا في إقامة التوازن بين السكان. فالزاوية الدلائية التي ظهرت في بداية القرن السادس عشر، وعرفت تطورا مضطردا خلال القرن السابع عشر، تمكنت بفعل أدوارها وخاصة التحكيمية من نشر نفوذها في منطقة الأطلس المتوسط والأطلس الكبير ومنطقة تادلا والواجهة الصحراوية، بل امتد نفوذها في أوج توسعها إلى منطقة الغرب وسايس[13].

إلا أن انعدام التوازن بين الامكانيات الاقتصادية والسكان، لأسباب عديدة (طبيعية كالجفاف، ديمغرافية ، تكاثر السكان) غالبا ما يدفع الفائض من السكان إلى الهجرة. فقبائل آيت عطا، هاجروا من جبل صاغرو في اتجاه واحات درعة وتافيلالت، بينما هاجرت إحدى فصائلهم في اتجاه الشمال عبر ممرات جبلية، فوصلت إلى منطقة الأطلس المتوسط على مشارف تادلا. كما وصلت قبيلة بني حسن إحدى القبائل المعقلية خلال القرن السابع عشر إلى صفرو وكاف النسور، في حين وصلت قبيلة زعير إلى ضواحي الرباط[14].

هذه الهجرة الجماعية، أحدثت تغييرا سكانيا وفراغا مجاليا، استدعيت قبائل أخرى لملأه، فانطلقت حركة هجرة متسلسلة من منطقة الأطلس الكبير والأطلس المتوسط. فزحف آيت يدراسن باتجاه فاس، بينما استقر آيت يوسي قرب ممرات الأطلس المتوسط. وتمكن المولى اسماعيل بسياسته العسكرية من إيقاف هجرة القبائل مؤقتا ببناء حزام من القصبات، وتكليف قبائل الكيش بمراقبة تحركات سكان الجبال[15]. ولكن بعد وفاته، تحركت القبائل من جديد في اتجاه الشمال. فقبائل زمور وكروان شرعوا في الزحف في اتجاه أزرو دافعين أمامهم بني حسن الذين وصلوا تحت ضغط القبائل في بداية القرن 17 إلى غابة المعمورة والغرب، بينما استقر كروان شمال أكوراي. أما زيان فقد وصلوا إلى الهضبة الوسطى دافعين أمامهم زعير في اتجاه المحيط الأطلسي، واستقرت بعض فصائلهم بولماس ومولاي بوعزة. واعتبر كثير من الباحثين الزاوية الدلائية، بحكم تأطيرها لقبائل الأطلس، تعبيرا سياسيا عن هذه الظاهرة. فالدلائيون أنفسهم هاجروا من ملوية العليـا (آيت مجاط) إلى آيت

12 انظر كيوم، البربر المغاربة وتهدئة الأطلس المركزي (1912-1933)، ترجمة وتقديم محمد العروصي، بني ملال، 1916، ص.70
13 محمد حجي، الزاوية الدلائية ...، الرباط، 196
14 Colin, G. S., origine arabe des mouvements de populations berberes dans le Moyen Atlas, Hesperis T.25, 1938, p.265-268
15 Lieutenant de la Chapelle, Le sultan Moulay Ismail et les berbères sanhaja du Maroc central, Archives marocaines, 28, 1931, p.31 sq

اسحاق، وبسطوا سيطرتهم على تادلا وسايس. الأمر الذي يظهر العلاقة بين ظهور الزاوية وتطورها وظاهرة الهجرة القبلية. فما هي طبيعة السياسة المخزنية المتبعة اتجاه القبائل؟

3) السياسة المخزنية

بعد القضاء على الزاوية الدلائية من طرف المولى رشيد، وجه خلفه المولى اسماعيل اهتمامه لمنطقة الأطلس المتوسط والأطلس الكبير. ولتدعيم سلطته عمل المولى اسماعيل على تكوين جيش نظامي على غرار جيش الانكشارية التركي.

حسب المصادر التاريخية قضى المولى إسماعيل 24 سنة لإخضاع القبائل، وخاصة المجموعة الصنهاجية التي كانت خاضعة فيما قبل للزاوية الدلائية محاولا إيقاف زحفها نحو المناطق السهلية[16]. ولتحقيق هذا الهدف قام ببناء حزام من القصبات كقصبة تادلا، وقصبة بلكوش وقصبة أزرو وعين اللوح وميدلت، وأقام بها حاميات عسكرية دعمها بقبائل الكيش التي اقرها بتادلا وسايس لمراقبة ومحاصرة سكان الجبال. إلا أن هذه السياسة زادت من حدة التوتر. ففي سنة 1674 ثارت القبائل الصنهاجية ورفضت أداء الضرائب وقتلت بعض ممثلي المخزن، ولم يتمكن المولى اسماعيل إلا هزم جزء صغير من الثوار. وبعد ثلاثة سنوات 1677، اجتمعت القبائل الصنهاجية حول أحمد بن عبد الله الدلائي، وكثفت هجومها على قبائل الكيش في تادلا وسايس، بل قامت بإعادة بناء الزاوية الدلائية[17]. وبعد فشل ثلاثة حملات عسكرية، ترأس المولى إسماعيل بنفسه الحركة العسكرية ضد آيت أومالو. ولاختلال التوازن في القوة، تمكن المولى إسماعيل من تحقيق نصر سريع[18]، وحاول كذلك إيقاف زحف آيت عطا نحو الواحات، فسيطر بعد عدة معارك على فركلة وغريس وتدغة، بل إن آيت عطا تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالجيوش السلطانية في معركة سنة 1679، حيث فقد السلطان قيادة الجيش، وفي طريق العودة فوجئ بعاصفة ثلجية في ممر تلويت. ومنذ هذا التاريخ صرف المولى اسماعيل اهتمامه عن آيت عطا الذين استقروا بدرعة ودادس طاردين القبائل العربية التي هاجرت نحو الشمال. وحاولت بعض فصائل آيت عطا الهجرة نحو الشمال، لكنها اصطدمت بالقبائل الصنهاجية الأخرى. مما وفر للمخزن فرصة لتوظيف النزاعات القبلية لصالحه. ورغم هذه التحركات العسكرية ظل التوتر سائدا بين مجموعة من القبائل والمخزن، قبائل جبل العياشي والأطلس المتوسط (أي آيت أومالوا)، فنظم المولى اسماعيل مجموعة من الحركات، وبنى قصبات في أزرو وعين اللوح وسكورة، وأقام بها حاميات عسكرية للسيطرة على الطريق الرابط بين تافيلالت وفاس.

16 الناصري، أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1956، ج7، ص.53-54

17 نفسه، ص.66 ، 68

18 نفسه، ص.78 تابع

بعد النتائج الهزيلة، نظم المولى اسماعيل حملة عسكرية كبرى خلال سنتي 1692-1623، استعمل فيها المدفعية والخيالة وفرق المشاة، وعمل على تهيئة الهجوم بعناية فائقة عبر ثلاثة جبهات وبعد الانتصار. أقام المولى اسماعيل قصبات وسط مجال آيت أومالو : قصبة بني مطير ، تونفيت وأغبالة التي بناها القائد علي أوبركة ، قائد آيت يمور وصهر سيدي علي أوحساين جد عائلة إمهواش المتوفى سنة (1730و 1735) .

إذا تمكن المولى اسماعيل من فرض سلطته على قبائل آيت أومالو إلا أن هذه الأخيرة، تمكنت خلال فترة الأزمة التي دامت ثلاثين سنة (1757- 1757) من استعادة قوتها العسكرية بشراء الخيول والأسلحة، واستعادة حرية التنقل نحو المناطق السهلية، وكذلك الهجرة اتجاه السهول وخاصة سايس والهضبة الوسطى وتادلا[19] .

إلا أن السنوات الأولى لحكم السلطان سيدي محمد بن عبد الله تميزت بالهدوء النسبي لحالة الانهاك الناجمة عن ثلاثين سنة من الحروب. وأولى علامات الاضطراب ظهرت سنة 1759 عندما هاجمت قبيلة كروان بعض القوافل التجارية، وحاولت الاستيلاء على أراضي جديدة ولتدعيم قوتها تحالفت مع الودايا، فاضطر سكان فاس إلى قبول حماية سادة الأطلس. فانتقل السلطان إلى فاس وعاقب الوداية وطرد كروان من ضواحي المدينة[20]. ولكن هذا الانتقال كان مؤقتا لعودة القبيلة إلى مجالها سنة 1761، بل مهاجمتها لقصر السلطان في دار الدبيبع[21] . كما قام سيدي محمد بن عبد الله بمعاقبة اشقرن لتحملهم المسؤولية عن الاضطرابات بتادلا. وكان الهدف من الحملات العسكرية إظهار القوة لإيقاف زحف القبائل وما يرافق الزحف من اضطرابات. إلا أن ظاهرة الهجرة عرفت تراجعا خلال عهد سيدي محمد بن عبد الله. فالمصادر التاريخية لم تذكر أي تحرك عسكري في الفترة الممتدة بين 1763 و 1767 ضد بربر الأطلس. ورغم استمرار التقاليد العسكرية باستعمال العبيد وفرسان القبائل وقبائل الكيش فقد لجأ سيدي محمد إلى التخفيف من سلطة المخزن، وألغى التداريب العسكرية لجيش العبيد.كما أوقف عملية التجنيد، وفي إطار نفس السياسة استغل المخزن التناقض بين القبائل ووظفها لصالحه. ولهذا فإن التحالف بين المخزن والقبائل لم يكن ثابتا، بل خاضعا لمصلحة السلطة المركزية. إلا أن المغرب عرف فيما بين سنة 1776و 1782 جفافا ومجاعة كبيرة، عمت مجموع الأقاليم المغربية، وأدت إلى نزيف ديمغرافي وانهيار الإنتاج وانعدام الأمن على الطرقات،حيث اضطر سيدي محمد بن عبد الله إلى تخصيص أربعة سفن للربط بين مختلف الموانئ لاستحالة التنقل عبر الطرق البرية.

19 الزياني، الترجمان المعرب، ص.56

20 الزياني، البستان الظريف، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، ص.113

21 محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، الرباط، 1986،ص.166

من الصعب معرفة بدقة جميع تنقلات القبائل البربرية خلال هذه الفترة، فالمصادر التاريخية تشير إلى تنقلات مجموعات بالحوز والشاوية والغرب وتادلا، كما تورد اغتيال المبعوث الخاص للسلطان مولاي علي بن فاضل المكلف باستخلاص الضرائب من طرف آيت عطا سنة 1777 . وابتداء من سنة 1782، استعادت الديمغرافية نشاطها الطبيعي تدريجيا.

عرف عهد المولى سليمان مواجهة عسكرية مفتوحة بين آيت أومالو بزعامة أبي بكر إمهواش والمخزن، إلا أن المواجهة لا يمكن ربطها فقط بالظروف الطبيعية ونمط العيش والسياسة الدينية والاصلاحية للسلطان، بل تعود كذلك إلى سياسة المولى سليمان القبلية.

III. المولى سليمان وزاوية إمهواش

لعبت الزوايا دورا مهما في تاريخ المغرب انطلاقا من القرن السادس عشر. ورغم الدراسات التي أنجزت حول العديد منها لازال تاريخ البعض منها يكتنفه كثير من الغموض، ومن بينها زاوية إمهواش التي لعبت دورا دينيا واجتماعيا وسياسيا طلائعيا منذ بداية القرن التاسع عشر وإلى غاية سنة 1932م تاريخ معركة تازكزاوت[22]. بل إن زاوية إمهواش وقاعدتها البشرية آيت أومالو لعبت دورا مركزيا في مجريات الأحداث التي عرفها عهد السلطان المولى سليمان، وخاصة بعد معركة أزرو سنة 1811. مما يطرح تساؤلات حول نفوذ الزاوية والسياق التاريخي للعلاقات مع المخزن وطبيعة السياسة الدينية والقبلية للمولى سليمان.

1) نفوذ الزاوية وسط قبائل آيت أومالو

يرجع أصل إمهواش إلى سيدي علي أوحساين المتوفى بين سنة 1730م و 1735م. كانت أم سيدي علي تلقب بتمهاوشت لانتمائها إلى إمهواش إحدى فخذات قبيلة آيت ويرا المنتمية بدورها إلى اتحادية آيت اسري. ونسبة إلى أمه لقب سيدي على بإمهواش وعرفت عائلته تحت اسم آيت سيدي علي إمهواش أو أمهاواش[23].

أصبح سيدي علي أوحساين تابعا للزواية الناصرية التي انتشر نفوذها بمجموع المناطق المغربية ومن بينها منطقة تادلا ومنطقتي الأطلس المتوسط والأطلس الكبير، حيث أصبحت الزاوية الحنصالية تابعة بدورها لزاوية تامكروت. وبعد وفاة سيدي علي أوحساين، خلفه ابنه محمد الملقب من طرف والده باوناصر تيمنا ووفاء لذكرى مؤسس الطريقة الناصرية[24].

كان لآيت سيدي علي نفوذا كبيرا بمنطقة الأطلس المتوسط والكبير، وخاصة بين القبائل المشكلة لاتحادية آيت أومالو التي عرفت عدة تحولات منذ القرن السابع عشر. وخلال عهد السلطان المولى سليمان، وحسب الزياني ضمت اتحادية آيت أومالو القبائل التالية : زيان، إشقرن، بني مكليد، آيت

22. العروصي، محمد، مقاومة آيت سيدي علي إمهواش للاحتلال الفرنسي. معركة تازكزاوت 1932.
Revue des arts et de l'oralité, cahier n°1, 2008, pp.37-44

23 Drague, g., Esquisse d'histoire religieuse au Maroc, Paris, 1951, p.63

24 Guillaume, Augustin Léon, les berbères marocains et la pacification de l'Atlas central (1912-1933), Paris, 1946, p.69

اسحاق، آيت احند، آيت لحسن واتحاديتي آيت اسري وآيت سخمان. وكان مجموع هاته القبائل يقطن الواجهة الشمالية لجبال الأطلس المتوسط وجزء من الأطلس الكبير[25].

حددت الظروف الطبيعية ونمط عيش السكان طبيعة العلاقة بين مختلف هاته القبائل بزعامة إمهواش والمخزن. كما أن الأحداث، التي عرفتها فترة المولى سليمان بالمنطقة لا يمكن فهمها إلا في إطار هذا السياق. فالظروف الطبيعية، فرضت على سكان المناطق الجبلية التحرك سنويا نحو المناطق السهلية ومنطقة الأزغار.

فخلال فصل الشتاء، وعندما تشتد البرودة وتتساقط الثلوج ويقل الكلأ بالمرتفعات تضطر قبائل آيت أومالو ، مجال نفوذ آيت سيدي علي للتنقل بقطعانهم نحو المناطق الواطئة الأكثر اعتدالا. وظاهرة التنقل لم تقتصر على آيت أومالو بل شملت مجموع المناطق الجبلية. وأدت حركة التنقل الموغلة في التاريخ إلى عقد عهود ومواثيق ووجود مراعي مشتركة وإلى خلق علاقات متنوعة بين سكان الجبال والسهول[26].

إلا أن المخزن كان يراقب تحركات هذه القبائل، ويحاول منعها من ارتياد السهول أو اكتساحها، وكان يكلف القبائل السهلية بمحاصرة القبائل الجبلية ومنعها من التنقل بقطعانها. إلا أن حتمية التنقل خلقت واقعا للتعايش المشترك. الأمر الذي كان يغضب المخزن ويجعله يوجه الاتهام للقبائل السهلية بالتقاعس عن أداء واجباتها، كما يظهر من خلال الرسائل العديدة التي بعث بها المولى سليمان إلى قواده[27].

حددت هذه المعطيات طبيعة العلاقة بين المخزن من جهة والقبائل الجبلية والزوايا المؤطرة لها من جهة ثانية. فزاوية إمهواش الموجودة في قلب مجال آيت أومالو كانت هي المؤطر السياسي والاجتماعي لهذه القبائل. مما شكل أحد الأسباب الرئيسية للاصطدام بالمخزن.

25 المنصور محمد، المغرب قبل الاستعمار. المجتمع والدولة والدين (1792-1822)ن ترجمة محمد حبيدة، الدار البيضاء، 2006، ص.177، هامش 119.

27 في الأطلس الأوسط يمكن التمييز بين مجالين لا يقتصران على الفح الشمالي والسفح الجنوبي للأطلس، كما تورد الكثير من الدراسات، ولكن بين منطقتين ارتبطت كل واحة حسب المعطيات الطبيعية والاثنية إما بالمناطق الصحراوية كما هو شأن إحنصالن وآيت بوكماز وآيت محمد، وآيت عبدي أوالسهول والهضاب الأطلسية كما هو شأن زيان وإشقرن وآيت إسحاق وآيت ويرا. وكان المخزن عاجزا عن تنظيم حملات عسكرية خلال الشتاء اللظروف الطبيعية غير الملائمة والمتمثلة أساسا في توحل المسالك، أي صعوبة التنقل. في حين توافق هذه الفترة، موسم نزوح القبائل الجبلية إلى السهول والهضاب والنجود الصحراوية مما يجعل في منأى عن عقاب المخزن. ومن هنا معاتبة المخزن لقواده لعدم قدرتهم على منع القبائل الجبلية من المراعي.
المنصور، المرجع السابق، ص.181

تمكن المولى اسماعيل بفضل سياسته العسكرية الصارمة من فرض سلطته على قبائل آيت أومالو. إلا أن هاته الأخيرة، تمكنت خلال فترة الأزمة التي دامت ثلاثين سنة (1727م-1757م) من استعادة قوتها العسكرية بشراء الخيول والأسلحة واستعادة حرية التنقل نحو المناطق السهلية[28].

حاول المولى سليمان رغم إمكانياته العسكرية الضعيفة فرض سلطته على قبائل آيت أومالو بتوسيع نفوذ القائدين محمد وعزيز المطيري وبن الغازي الزموري لتشمل مجموع برابرة فازاز دون الأخذ بعين الاعتبار التوازنات المحلية والمنافسة بين الزعامات القبلية وسلطة أبي بكر إمهواش. وفي إطار نفس السياسة حاول المولى سليمان منع القبائل الجبلية من ارتياد المراعي الشتوية بالسهول متوعدا القبائل السهلية بالعقاب في حالة عدم تنفيذ التعليمات، بل قام بتنظيم حملة عسكرية في فصل شتاء سنة 1808 م[29]." ففي سنة 1223هـ يقول الناصري، عقد فيها السلطان لوصيفه أحمد بن مبارك صاحب الطابع على جيش كثيف وضم إليه جماعة من قواد الجند والقبائل، وسار حتى نزل على حدود بلاد آيت أومالو، وأحاطت بهم العساكر من كل جهة وكان ذلك في فصل الشتاء، فمنعوهم من النزول إلى البسيط للمرعى وجلب الميرة إلى أن ضاعت مواشيهم"[30].

إلا أن هذه السياسة المخزنية لم تكن وليدة اللحظة بل ضمن سياق تاريخي للعلاقات بين المخزن والقبائل والزوايا المؤطرة لها.

2) السياق التاريخي للعلاقات بين المخزن والزاوية

بعد القضاء على الزاوية الدلائية من طرف المولى رشيد وتوحيد البلاد وجه خلفه المولى إسماعيل اهتمامه لمنطقة الأطلس المتوسط والكبير، مجال اتحادية آيت أومالو. ولتدعيم سلطته عمل المولى اسماعيل على إخضاع القبائل الصنهاجية وأحاط المنطقة بحزام من القصبات، كقصبة تادلة وقصبة بلكوش (بني ملال) وقصبة أزرو وعين اللوح وميدلت. وأقام في هذه القصبات حاميات عسكرية ودعم هذه الحاميات بقبائل الكيش لإيقاف تحركات سكان الجبال، كما استغل التنافس بين الزعامات القبلية ووظفها لصالح المخزن. ونظم حملات عسكرية مثل الحملة الكبرى ضد آيت أومالو سنة 1693[31]. وبعد هذه الحملة أقام المولى إسماعيل قصبات وسط مجالها القبلي : قصبة بني مطير وتونفيت وأغبالة التي بناها القائد علي أوبركة قائد آيت يمور وصهر سيدي علي أوحساين جد

28 انظر الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء،1956، ج.7، ص. 114 تابع

29 الزياني، أبو القاسم، الترجمان، المعرب، ترجمة وتحقيق هوداس، باريس، 1886، ص.59

30 نفسه، ج.8، ص.

31 غالبا ما كان المخزن ينظم الحملات العسكرية في فصل الربيع لعدم ملائمة الظروف المناخية للتحرك في فصل الشتاء.

عائلة إمهواش والمتوفى بين سنة (1730م و 1735م). وقد تزوج سيدي علي بايطو ابنة القائد علي أوبركة. إلا أن العلاقات أصبحت جد سيئة، فقام إمهواش بقتل ايطو[32].

عند وفاة المولى إسماعيل سنة 1727 م انحل النظام العسكري وانهارت السياسة الدفاعية عندما قام الجنود بمغادرة القصبات، ووقعت مجموعة من الاضطرابات تغيرت على إثرها خريطة استقرار السكان بفعل الهجرة أو الطرد. واستأنفت القبائل الجبلية زحفها نحو السهول دافعة أمامها قبائل أخرى.

تمكنت زاوية إمهواش خلال فترة الاضطرابات من تقوية نفوذها وسط القبائل للأدوار المتعددة التي كانت تقوم بها. وخلال هذه الفترة استقروا بمنطقة القباب مركز قبيلة اشقرن. وحسب المصادر لم يلعب سيدي علي دورا سياسيا في السنوات الأولى للأزمة . ولكن خلفه محمد أوناصر ساند اليزيد عندما ثار ضد أبيه سنة 1770م، حيث التجأ إلى زاوية آيت إسحاق وتم استقباله بحفاوة كبيرة من طرف محمد أوناصر. إلا أن بعض القبائل رفضت مساعدة اليزيد فاضطر اليزيد إلى طلب العفو. وبعد توليه الحكم سنة 1790م كافأ محمد أوناصر بهدية قيمتها 10 آلاف ريال[33].

أما في عهد المولى سليمان فقد عرفت العلاقات بين السلطان وأبو بكر إمهواش تدهورا كبيرا خاصة بعد معركة أزرو سنة 1811م ، فما هي طبيعة العلاقة بين الزاوية والمخزن ؟

3) السياسة الدينية والقبلية للمولى سليمان و الاصطدام مع أبي بكر إمهواش

تجمع المصادر التاريخية على أن المولى سليمان كان فقيها وعالما، فقد عمل سيدي محمد بن عبد الله على تلقينه العلوم الدينية منذ صغره. وبعد حفظ القرآن وبعض العلوم الدينية أرسله والده إلى تافيلالت للاشتغال بالعلم والعكوف عليه. وكان " يبعث إليه بأعيان الفقهاء والأدباء إلى سجلماسة ليقرأ عليهم ويأخذ منهم ... ولم يلتفت قط إلى شيء مما كان يتعاطاه إخوته الكبار والصغار من أمور اللهو "[34].

حول السياسة العسكرية للمولى اسماعيل انظر:

2.Morsy Magali, la relation de Thomas Pellow. Une lecture du Maroc au 18è siècle,Paris, 1983. Drague, op. cit.,p.39

33 الناصري، المصدر السابق، ج.8، ص.27

34 نفسه، ص.86، 138-139

بحكم تتلمذه على أكبر العلماء تشبع المولى سليمان بالمذهب المالكي وتبنى مشروعا إصلاحيا لتطهير الدين مما علق به من انحرافات وبدع مثل انعقاد المواسم واجتماع المريدين للسماع والرقص والذبح على الأضرحة. إلا أن هذه الممارسات أصبحت من الشعائر الدينية اليومية لعامة الناس. وشكلت أساس العلاقات بين الزوايا المنتشرة في مختلف أنحاء البلاد والسكان. وأرسل المولى سليمان خطبا لتقرأ من أعلى المنابر في المساجد يحذر الناس من البدع ويدعوهم لتركها. وهذا الاتجاه اعتبر بمثابة إعلان حرب على الزوايا. ومما لا شك فيه أن هذا التوجه وإن كان ينبعث من إيمان شخصي وتمسك بالشرع فسيؤدي حتما إلى الحد من نفوذ الزوايا وامتيازاتها ومداخيلها. ولهذا دخل في صراع مع الزوايا والشرفاء وخاصة الزاويتين الدرقاوية والوزانية .

منذ ظهور إمهواش في الثلث الأول من القرن الثامن عشر ارتبطوا بالزاوية الناصرية، ولم تلعب زاوية إمهواش دورا سياسيا خلال هذه الفترة. وتغيير هذا الموقف مع محمد أوناصر الذي ساند اليزيد في ثورته ضد أبيه سيدي محمد بن عبد الله سنة 1770م، مما أدى إلى فتور في العلاقة بين إمهواش والناصريين، رغم أن ابا بكر إمهواش ظل ناصريا ولكنه في نفس الوقت أظهر تعاطفا مع تعاليم شيخ الزاوية الدرقاوية خاصة وأن الناصريين استنكروا السلوك العدواني لإمهواش[35].

حسب الناصري، ذكر في مجلس الشيخ الناصري الدجال، فأجاب، "لا يخرج الدجال حتى تخرج دجاجيل من جملتهم أمهاوش " مما يشير إلى تدهور العلاقة بين الزاويتين[36].

كان أبو بكر إمهواش على صلة جيدة بمولاي العربي الدرقاوي الذي تعرض أتباعه لمضايقة المخزن. وتوتر العلاقة بين الدرقاويين والمولى سليمان كان له تأثير على مجريات الأحداث وخاصة منذ اصطدام أبي بكر إمهواش بعساكر السلطان في معركة أزرو سنة 1811م.

إلا أن المواجهة العسكرية، سواء في معركة أزرو أو معركة ظيان بين آيت أومالوا بزعامة أبي بكر إمهواش وعساكر السلطان، لا يمكن ربطها فقط بالظروف الطبيعية ونمط عيش سكان الجبال والسياسة الدينية الإصلاحية للسلطان بل ترجع كذلك إلى سياسة المولى سليمان القبيلة. فقد اعتمد المخزن على قبائل السهل والدير لمواجهة سكان المرتفعات. وأصبحت هذه القاعدة إحدى ثوابت السياسة القبلية التقليدية للمخزن.

فبعد بيعة المولى سليمان سنة 1792 م، لعبت قبائل آيت يدراسن وزمور وكروان دوارا عسكريا هاما للقضاء على التمرد وتوحيد البلاد خاصة بين سنة 1792 و 1798 بزعامة كل من القائدين محمد

35 المنصور محمد، أبو بكر أمهاوش، معلمة المغرب، المجلد، 3، ص.390-391.
36 الناصري، المصدر السابق، ص.138

ووعزيز وابن ناصر المطيري، بل إن هذا الأخير أصبح " القائم بدولة مولانا سليمان" حسب تعبير الضعيف الرباطي[37]. وشكلت هاته القبائل بزعامة القائدين سدا منيعا في وجه آيت أومالوا بزعامة أبي بكر إمهواش. إلا أن المولى سليمان عمل على إضعافها[38]، الأمر الذي أدى إلى تغيير في التحالفات لتغير ميزان القوة بين آيت أومالوا بزعامة إمهواش وآيت يدراسن وزمور ، لتحالف كروان وآيت يوسي مع آيت أومالوا، القوة العسكرية الضاربة بالأطلس. ففي سنة 1810م/1226هـ يقول الناصري : " قامت الفتنة بين قبائل البربر وكان ابتداؤها أولا بين آيت ادراسن وكروان وبين أعدائهم آيت أومالوا أهل جبل فازاز، ثم لما انتشبوا الحرب غدرت كروان بإخوانهم آيت ادراسن وانحازوا إلى آيت أومالوا، فانهزمت آيت يدراسن ووضع آيت أومالوا فيهم السيف ونهبوا حلتهم بما فيها " [39].

أدى الاختلال في التوازن إلى اندلاع سلسلة من المواجهات بين آيت أومالوا بزعامة إمهواش وحلفائهم الجدد كروان وبين آيت يدراسن. وأدرك المولى سليمان خطورة الوضع والنتائج السلبية الناجمة عن هذا الاختلال فدعم آيت يدراسن بفرق عسكرية. إلا أن آيت أومالو أظهروا تفوقا عسكريا كبيرا. وبعد فشل هذه السياسة وعدم قدرة بربر المخزن على مواجهة أبي بكر إمهواش اضطر المولى سليمان إلى تنظيم حملات عسكرية تحت قيادته المباشرة. ففي ابريل سنة 1811م هيأ المولى سليمان حملة ضد آيت أومالو الذين انضمت إليهم قبائل كروان وآيت يوسي وآيت صغروشن ومرموشة. وبعد وصوله إلى أزرو اتجه نحو آيت يوسي ، وخلال الزحف تمت مهاجمة مؤخرة الجيش بقوة وانتشرت الفوضى بين جيوش السلطان، فاضطر المولى سليمان للانسحاب[40].

كان لمعركة أزرو عواقب جد وخيمة، فقد أظهرت بوضوح التفوق العسكري لآيت أومالو بزعامة إمهواش وضعف المخزن والقبائل المساندة له. ولجأ المولى سليمان إلى محاولة تشديد الحصار على آيت أومالو من طرف القبائل المحيطة بهم وحثها على عدم التعامل معهم[41].

مع فشل هذه السياسة، قرر المولى سليمان توجيه ضربة عسكرية لآيت أومالوا لإعادة التوازن. ففي سنة 1819 م ،وهي السنة التي انتشر فيها الطاعون، قرر المولى سليمان الذي كان موجودا بمراكش تنظيم حركة كبرى ضد آيت أومالو فجند لهذا الغرض قبائل الحوز " وكتب إلى العبيد

37 الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، الرباط 1986، ص.263
38 المنصور، المغرب قبل الاستعمار...، ص.181
39 الناصري، المصدر السابق، ص.115
40 المنصور، المرجع السابق، ص.182
41 الضعيف، المصدر السابق، ص.376

بمكناسة يأمرهم أن يوافوه بتادلا، وكتب إلى ولده وخليفته بفاس أن يوافيه بها بجيش الودايا وشراكة وعرب الغرب وبرابرته وعسكر الثغور" [42].

حسب المصادر التاريخية، وصل عدد المجندين إلى 60 ألف، وزحفت الجيوش إلى أن وصلت إلى أدخسان قرب خنيفرة. والتمست قبائل آيت أومالوا العفو لكن المولى إبراهيم رفض الصلح وانتشب القتال، وأثناء المعركة انضم قائد زمور الحاج محمد بن الغازي الذي كان درقاويا إلى آيت أومالوا، فمنيت العساكر المخزنية وقبائل المحلة السلطانية بهزيمته كبرى عرفت لدى المؤرخين بوقعة ظيان. وأثناء المعركة أصيب المولى ابراهيم بجروح توفي على إثرها، بل إن السلطان نفسه سقط في الأسر، وتمت معاملته باحترام كبير كشريف وكأمير للمؤمنين " وأقبلت نساء الحي من كل جهة يفرحن ويضربن بالدفوف، ثم جعلن يتمسحن بأطرافه تبركا به"[43] . وبعد ثلاثة أيام رافقوه إلى مكناس.

كان من نتائج الهزيمة في معركة ظيان سقوط هيبة السلطان المولى سليمان وانتشار الاضطرابات بأغلب المناطق المغربية وازدياد نفوذ أبي بكر إمهواش لدى القبائل البربرية وترسيخ الاعتقاد لدى العامة ببركته وصدق تنبؤاته. ولاسترجاع ولاء بعض القبائل البربرية قام المولى سليمان في صيف 1819م باعتقال 600 فرد من البربر والاحتفاظ بهم كرهائن. إلا أن هذا الاجراء أدى إلى تكوين جبهة موحدة بزعامة أبي بكر إمهواش الذي زحف على مكناس وحاصرها. ورغم اطلاق سراح المعتقلين بوساطة المرابط عبد الله بن حمزة العياشي استمرت الاضطرابات وكان من أهمها فتنة فاس (1820م – 1822م) التي اتحدت فيها الزعامات الدينية والزعامات القبلية وعلى رأسها أبو بكر إمهواش، الذي حضر مراسيم خلع السلطان المولى سليمان وبيعة ابن أخيه إبراهيم بن اليزيد.

ختاما شكلت زاوية إمهواش إطارا دينيا واجتماعيا وسياسيا لقبائل آيت أومالوا. وإذا كانت الأعراف والتقاليد والعادات ونمط العيش تحدد إيقاع حياة السكان ومختلف أنواع علاقاتهم، فقد كانت تحدد أيضا تحركات الزوايا ومواقفها اتجاه المخزن ومؤسساته والزوايا الأخرى. فزاوية آيت سيدي علي كانت تعبيرا عن طموحات وحاجيات السكان المحليين. ومن هنا التناقض مع الزاوية التابعة لها أي الزاوية الناصرية لأن سلوكها يخضع للمعطيات المحلية أكثر من التوجهات العامة للزاوية الأم.

تميزت العلاقة بين المولى سليمان وزاوية إمهواش بالتوتر في المرحلة الأولى والمواجهة العسكرية في المرحلة الثانية. وإذا كان التوتر إحدى سمات علاقة المخزن بآيت أومالوا والزاوية المؤطرة لها ويدخل ضمن سياق تاريخي ومعطيات طبيعية حتمت على السكان التنقل بين السهل والجبل، فإن المولى

42 الناصري، المصدر السابق، ص.136
43 نفسه

سليمان بسياسته الدينية والقبلية عمل على إثارة الزوايا وإضعاف القبائل البربرية المساندة للمخزن، مما أدى إلى اختلال في التوازن وإلى اندلاع سلسلة من المواجهات بين آيت أومالوا بزعامة أبي بكر والمخزن أدت في النهاية إلى تكوين جبهة موحدة بين قبائل الأطلس وشيوخ الزوايا .كما ظهر ذلك جليا في فتنة فاس .

IV. التشريع العرفي والحركة الوطنية

يشكل ظهير 16 ماي 1930، أو ما اصطلح على تسميته بالظهير البربري، مرحلة سياسية جديدة في التاريخ المعاصر للمغرب لما أحدثه من تحولات في المشهد السياسي، وما نتج عنه من تغيرات في علاقة السكان بالسلطات الاستعمارية، وما أوقعه من شرخ في النظام القضائي المغربي.

شكل إصدار الظهير البربري البداية للتحرك السياسي للحركة الوطنية، التي اعتبرت الظهير تهديدا للإسلام وللوحدة الوطنية المغربية، وتناقضا صريحا مع ما ورد في الفصل الأول من معاهدة الحماية الذي ينص على حفظ " الوضعية الدينية وحرمة السلطان ومكانته المعتادة وتطبيق الدين الإسلامي، وصون المؤسسات الإسلامية خصوصا مؤسسات الأحباس، وضمان تنظيم مخزن شريف على أساس إصلاحي ".[44]

حسب هذا البند، نصت معاهدة الحماية على الوحدة الترابية والدور الديني للسلطان، ولهذا اعتبر الظهير البربري تهديدا لوحدة المغاربة بتهديمه للوحدة التشريعية.

أدى صدور ظهير 16 ماي 1930، إلى حركة احتجاجية واسعة، سواء بالمغرب أو الخارج، وخاصة بدول المشرق العربي، وفوجئت سلطات الاستعمار بحجم الرد، واعتبر الظهير تقويضا لاختصاصات السلطان وتهديدا للوحدة الترابية للمغرب[45].

إلا أن صدور الظهير قبيل الانتهاء من اخضاع آخر جيوب المقاومة بالمناطق الجبلية كان خلاصة للأفكار الرئيسية الاجرائية للسياسة البربرية التي تم تبنيها منذ سنة 1912م[46]. فموازاة مع عمليات الاحتلال (احتلال المناطق الجبلية)، والتعرف ميدانيا على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والذهنية للسكان حددت أشكال التطبيق عن طريق تدوين الأعراف وتشريعها، وإنشاء المحاكم العرفية بالمناطق الأمازيغية لإضفاء الصبغة القانونية الالزامية على الأحكام والعقود. مما أدى إلى حركة احتجاج واسعة.

44 انظر نص معاهدة الحماية، حركات، ابراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج.3، ص.344

45 حول ردود الفعل بعد صدور الظهير البربري، انظر بوعياد، حسن، الحركة الوطنية والظهير البربري، الدارالبيضاء، 1979

46 Lyautey l'Africain, T.1, p.78

1) .السياســـة البربريـة

منذ سنة 1912، جندت فرنسا مجموعة من المختصين والعسكريين لجمع معلومات عن المناطق الأمازيغية لرسم معالم السياسة التي ينبغي اتباعها مع السكان الأمازيغ الهادفة مسبقا إلى الفصل بين العرب والبربر .

ففي 16 يونيو 1914 أصدر الجينرال هنريس Henrys أوامره إلى العسكريين أثناء العمليات بمنطقة الأطلس المتوسط بعدم تغيير الوضع الاجتماعي وعدم المساس بالأعراف بعد خضوع القبائل وإعطائها شكلا جديدا يبعدها عن التقاليد الاسلامية[47] .

في 7 يوليوز من نفس السنة بعث هنريس Henrys لليوطي تقريرا بعد احتلال خنيفرة يدعو فيه إلى المحافظة على العرف وتنقيته من الأشكال الاسلامية واعتباره الأساس للتنظيم الاداري والقضائي تحت مراقبة سلطات الاستعمار. ونص التقرير على جعل "الجماعة" مؤسسة قضائية تسهر على تطبيق العرف.

شكلا هذان التقريران الأساس لإصدار ظهير 11 شتنبر 1914 المكون من فصلين، والذي ينص على إدارة القبائل البربرية حسب قوانينها وأعرافها الخاصة تحت مراقبة السلطات،وإصدار مراسيم من طرف الصدر الأعظم والكاتب العام للحكومة حسب الحاجة لإضفاء الشرعية على مختلف الاجراءات. وهكذا فإن ظهير 1914 تضمن المبادئ الأساسية للسياسة البربرية المستقبلية الهادفة إلى خلق تعارض بين الشرع والعرف[48]

لتدعيم هذه السياسة أنشأت لجنة الدراسات البربرية Comité d'études berbères التي ترأسها الكاتب العام للحكومة كيار Gaillard[49]. ومن بين مرامي اللجنة، جمع المعلومات عن القبائل الأمازيغية، وخاصة توثيق الأعراف والتقاليد، لتصنيف القبائل: قبائل عرف أو قبائل شرع.

نص ظهير 11 شتنبر 1914 على تسيير القبائل حسب القوانين والأعراف المحلية الخاصة بها سواء المكتوبة على الأوراق أو الألواح أو الشفوية.

كان سكان الأطلس الكبير سيتعلمون كلمة عرف، في حين استعملت كلمة إزرف Izref من طرف ساكنة الأطلس المتوسط. وبما أن مصدر الأعراف ليس إلاهيا، فقد رأى المشرعون إمكانية توجيهها من

47 وثيقة بحوزتنا من الأرشيف الديبلوماسي في نانت الفرنسية.

48 Douté, Renseignements coloniaux, déc. 1901, p.173

49 يوجد أسماء لجنة الدراسات البربرية في الجزء الأول من الأرشيف البربري حيث تم فيما بعد نشر كل ما يتعلق بالبربر.

الناحية القانونية لخدمة الأهداف السياسية للاستعمار ومن بينها جعل الأمازيغ قوة مناقضة وموازية للعرب، كتحسب مستقبلي، لتوظيف التناقض المصطنع والقابل للتطوير في حالة تعرض المصالح الفرنسية للتهديد. ولتدعيم السياسة البربرية تبنت الاقامة العامة سياسة تعليمية وحركة التبشير لخدمة نفس الأهداف.

إلا أن التمييز بين العرف والشرع، سواء تعلق الأمر بالقانون الجنائي أو القانون الخاص لم يكن واضحا، لأن الأعراف كانت متأثرة بالتشريع الاسلامي، وكان المشرعون الاستعماريون على وعي تام بهذه الحقيقة، حيث أن القبائل لم تخل أبدا من الفقهاء والعلماء والزوايا الذين يمثلون الثقافة الاسلامية، بل إن السلطات الفرنسية وللحد من تأثير الاسلام و " تنقيته العرف من التأثير الاسلامي" حسب تعبير هنريس Henrys ، منعت تنقل العلماء والفقهاء بين القبائل الأمازيغية بدون رخصة. شكل هذا الإجراء أحد المطالب الأساسية للحركة الوطنية بعد صدور الظهير البربري.

بعد تأسيس لجنة الدراسات البربرية : Comité d'étude bébéres، استخلص مختلف الدارسون الاندماج بين الشرع والعرف. وكتب Nehlil أحد الأعضاء البارزين للجنة : " إذا لم ينجح الاسلام إلى اليوم في القضاء على مؤسسة إزرف، فمن غير المقبول أن يهيمن عليها مع التراجع المستمر للعرف لصالح الشرع ، مما سيؤدي في النهاية إلى اختفائه بحكم الدور الكبير الذي يلعبه المرابطون والشرفاء وشيوخ الزوايا ، وإجمالا جميع الشخصيات الدينية التي لها تأثير وحظوة لدى السكان الأمازيغ"[50].

وأكد R.Montagne في دراسته على نفس التداخل، بل لاحظ عدم وجود تعارض وتناقض بين العرف والشرع، لأن القاضي يلجأ إلى العرف أحيانا لفض النزاعات، كما أن الجماعة تلجأ إلى الشرع[51].

نتيجة لهذا التداخل كلفت سلطات الاستعمار، مجموعة من الباحثين لحل الاشكالية واستخلص أحدهم استحالة تطبيق العرف بسوس لعدم تطابقه مع الشرع المنظم لحياة الأشخاص. والامكانية الوحيدة هي تطبيق الأعراف المتعلقة ببعض الجرائم كالسرقة والقتل.

لإنجاح السياسة البربرية وتطبيق الأعراف استعملت الجماعة كأداة للتطبيق، فالجماعة بطبيعة بنيتها، تعتبر الخلية الأساسية للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن هنا ضرورة إخضاعها ومراقبتها من طرف السلطات. وموازاة مع تدعيم دور الجماعة قضائيا، قررت الإقامة العامة ولأهداف سياسية واضحة إنشاء جماعات قضائية . .Jamaa Judiciaire مع تحديد مهامها. ولهذا

50 Archives Berbères, 1915-1916, vol.1, fascicule 2

51 Montagne, R., les berbères et le maghzen dans le sud du Maroc.Essai sur la transformation politique des berbères sédentaires, Paris, 1930

ينبغي التمييز بين الجماعات القضائية التي تم إنشاؤها سنة 1915 والجماعات التقليدية القديمة. ومنح لها الحق في تسيير قضاء القبائل والبث في مختلف القضايا. وكان يتم تعيين أعضائها من طرف السلطات.

خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، لم تعرف هذه السياسة أي تطور. ومع انتهائها وإخضاع مجموعة من المناطق الجبلية تم تطوير هذه السياسة.

ففي إحدى رسائل اليوطي المؤرخة بتاريخ 10 يوليوز 1923 كتب ما يلي: " التقدم المستمر خلال السنوات الأخيرة بالأطلس المتوسط، وتصنيف عدد من القبائل ضمن قبائل العرف ذات الوضعية الخاصة حسب ظهير 11 شتنبر 1914، والتوسع المترتب بعد توسيع العمليات وتقدم القوات يفرض إعادة تنظيم القضاء البربري الذي شرع فيه سنة 1915" . وفي نفس الرسالة، قرر المقيم العام وضع سجلات رهن إشارة رؤساء المناطق ومنحهم الحرية في اختيار مقرات اشتغال الجماعة القضائية.

كانت كل جماعة، تتكون من رئيس وأعضاء يتم اختيارهم حسب معرفتهم وإلمامهم بالأعراف. وعرفت سنة 1924 تحولا خطيرا في السياسة البربرية بعد إنشاء مكتب الدراسات للمسائل البربرية بمديرية الشؤون الأهلية.

أحدث القضاء البربري بمجرد إجراءات إدارية. ونتيجة لهذا لم يكن للأحكام والعقود صفة قانونية أمام المحاكم. ولهذا اتخذ القرار لتسجيل الأحكام والعقود في سجلات خاصة لإضفاء الشرعية عليها. وفي 15 سبتمبر 1924 أصدرت الأوامر لتنفيذ الأحكام الصادرة عن الجماعة أي بعبارة أخرى، تحولت الجماعة القضائية إلى محكمة حقيقية يمكنها البث في القضايا المدنية والجنائية التي كانت من اختصاص الأجهزة المخزنية، القاضي، الباشا والقائد، وعبر تقرير اللجنة المجتمعة يوم 8 أكتوبر 1924 عن النوايا الحقيقية لهذه الإجراءات و المتمثلة في :

- تقسيم النظام القضائي

- تدعيم العنصر البربري، لخلق قوة يمكن استعمالها مستقبلا.

- التفريق بين العرب والبربر .

في أواخر سنة 1929 تم إنشاء 81 جماعة قضائية وفي نفس الوقت استمرت عملية تصنيف القبائل إلى قبائل عرف وقبائل شرع، واستمرت هذه العملية إلى غاية سنة 1941 رغم الصعوبات الناجمة عن التداخل بين الشرع والعرف، مما طرح مجموعة من المشاكل.

فمثلا قبيلة كروان في منطقة مكناس، تم تقسيمها إلى قسمين كروان الشمال، الخاضعة لأحكام الشريعة، وكروان الجنوب الخاضعة للعرف. ونفس المشكل طرح بالنسبة لقبيلة آيت سادن قرب فاس، وقبيلة زمور، وقبائل أخرى كثيرة. لأن مختلف أنواع التعاملات بما فيها البيع والشراء، وكذا أهم جوانب الأحوال الشخصية كانت خاضعة للشرع الإسلامي. كما أن تطبيق العرف كان من شأنه عرقلة عمليات شراء الأراضي من طرف المعمرين.

مع هذا التطور، وتعدد الأنظمة القضائية وما نجم عنه من مشاكل، ولتدعيم السياسة البربرية، تم تكوين لجنة لدراسة القضاء البربري يوم 7 دجنبر 1929 وكانت مهمتها الأساسية تتمثل في تحديد القواعد التنظيمية والقانونية للقضاء البربري لإضفاء الشرعية على أحكام الجماعات القضائية بواسطة ظهير. وبعد عدة مداولات تمت صياغة ظهير 16 ماي 1930 الذي شكلت بموجبه المحاكم العرفية في أغلبية المناطق الأمازيغية، بل بدأت السلطات في تحويل العرف إلى قانون إلزامي ومرجعية المحاكم.

بموجب ظهير 16 ماي 1930 تم إنشاء المحاكم العرفية بمختلف المناطق الأمازيغية. ومن بين هذه المحاكم ، محكمة أغبالة، أزيلال، تيلوكيت، القصيبة...الخ. وحسب مرسوم 16 أبريل 1928، فقد صنفت عددا من القبائل الأمازيغية المشرفة على تادلا ضمن قبائل العرف. من بينها آيت عطا نومالو ، وآيت بوزيد وآيت سخمان وآيت اسري وآيت مساض...اي بعبارة أخرى مجموع قبائل الأطلس المتوسط والكبير.

حسب بعض الوثائق التي تم الاطلاع عليها، فقد كان يتم تدوين الأعراف في سجلات خاصة من طرف هيئة قضائية مكونة من :

-رئيس الدائرة .
-النائب .
-الحكام الرسميون.
-الحكام الملحقون.
-القائد والشيوخ والأعيان .

وبعد الإشارة إلى مضمون العرف الخاص بإحدى القضايا، يتم التداول لتغييره أو إلغائه أو إدخال إضافات. وحسب الأعراف، التي تم تدوينها لا يوجد حكم بالإعدام، من وغالبا ما يفرض العرف على القاتل أداء دية أو مصادرة أملاكه مع نفيه من القبيلة، وكذلك الشأن بالنسبة لحبس الأشخاص.

يظهر من خلال مختلف الأعراف، وجود مسؤولية جماعية خاصة فيما يتعلق بالاستغلال الزراعي والرعي واستعمال المياه، عصب الحياة بالنسبة لمجموع القبائل وأساس ثروتها .

ولإظهار طبيعة التشريع العرفي، نورد مثالا يتعلق بالإرث. في معظم القبائل الأمازيغية وحتى في القبائل العربية وعكس الشريعة الاسلامية، فإن المرأة تمنع من الارث، إلا أن هذا الاجراء لم يقتصر على القبائل الأمازيغية، بل كانت ممارسة جد شائعة وسط قبائل لضرورة المحافظة على ممتلكات العائلة والقبيلة وعدم انتقالها للأجانب.

2) ردود الفعل

أدت هذه السياسة، التي ابتدأت منذ سنة 1912، وتوجت بإصدار ظهير سنة 1930 وما رافقه من إجراءات تطبيقية بتشريع العرف وإنشاء المحاكم، إلى موجة عارمة من الاحتجاجات وأحدثت تحولا سياسيا في الساحة المغربية، فما هي طبيعة ردود الأفعال؟

وقع أول احتجاج شعبي ضد السياسة البربرية وإصدار ظهير 16 ماي 1930 يوم 20 يونيو 1930، والذي تزعمه عبد اللطيف الصبيحي الذي كان يعمل مترجما بعد توصله بنسخة من الظهير. واعتبر الظهير منذ الوهلة الأولى تقسيما بين العرب والبربر وتهديدا لوحدة العقيدة وللوحدة الترابية، بل إن الظهير اعتبر كارثة. فتجمع السكان في المساجد في مختلف أنحاء المغرب لقراءة وترديد اللطيف. ولعبت المساجد دورا رئيسيا في توعية السكان بخطورة المشروع. إلا أن السلطات الاستعمارية تحركت يوم 13 غشت فمنعت قراءة اللطيف.

في نفس الوقت كونت لجنة بفاس للتفاوض، وتم الاتفاق على استقبال اللجنة من طرف السلطان بالرباط. وهذا اعتراف ضمني بالحركة الوطنية من طرف سلطات الحماية والحكومة .

وكانت اللجنة[52] مكونة من :

-حمزة الطاهري .
-محمد حسن الوزاني

52 بوعياد، حسن، الظهير البربري....، ص.18-19

-علال الفاسي .
-أحمد بوعياد .
-حسن بوعياد .
-العربي بوعياد .
-عبد القادر التازي .
-محمد الدويري .
-إدريس بن عبد الرحمان برادة .
-أحمد مكوار .
وتمثلت مطالب اللجنة فيما يلي :

- احترام اختصاصات السلطان، وتدعيم سلطاته بمنح سلطة حقيقية لموظفي المخزن: قضاة،قواد، باشواة ومحتسبون وضمان استقلاليتهم وتبعيتهم للحكومة.
- إصدار ظهير من طرف السلطان ينص على خضوع القرى والمدن للمحاكم الشرعية .
- تنظيم المحاكم وإصلاحها.
- توحيد البرامج التعليمية.
- احترام اللغة العربية وجعلها الأساس في الإدارة والتعليم .
- إيقاف نشاط البعثات التبشيرية ودعمها المالي ،ومنع الرهبان من الإشراف على المدارس.
- السماح للفقهاء والعلماء بالتنقل بحرية .
- اعتبار مجموع المغاربة خاضعين للشرع.
- إطلاق سراح السجناء وعودة المنفيين.

لم تتم الاستجابة لهذه المطالب واستأنف الاحتجاج بقراءة اللطيف وألقى القبض على بعض زعماء الحركة الوطنية وتم نفي البعض الآخر.

على إثر هذه الأحداث، نظمت حملة في الصحافة العربية والفرنسية رغم المنع والحملات المضادة. فالظهير البربري أدى إلى تحريك مشاعر السكان، وكان نقطة الانطلاقة للحركة الوطنية. وقامت هذه الانطلاقة على ثلاثة عناصر رئيسية :

- ظهور نشاط سياسي وسط الشباب المغربي المتشبع بالثقافة الجديدة.
- اعتماد الرموز الدينية في مواجهة المحتل لتأكيد الهوية ولرفض سياسة التفرقة.
- توسيع النشاط السياسي بمشاركة واسعة للسكان.

وبما أن الفصل الأول من معاهدة الحماية ينص على احترام اختصاصات السلطان ووحدة المغرب، فقد اعتبر إصدار ظهير 16 ماي، تناقضا لما ورد في معاهدة الحماية لتكسير الوحدة

التشريعية، ومحاولة ربط القبائل الأمازيغية بفرنسا عن طريق استعمال الفرنسية في التعليم . وأدت حركة الاحتجاجات إلى تدعيم التلاحم بين المغاربة بمختلف انتماءاتهم الاجتماعية والثقافية وخلق روابط متينة بل عضوية بين السلطان والزعماء السياسيين.

انطلاقا من هذا التاريخ، أصبحت الحركة الوطنية لا تدافع فقط عن الهوية، ولكن عن المجتمع في مختلف الميادين السياسية والإدارية والقانونية والاقتصادية، حيث وجهت انتقادات عنيفة للسياسة الاستعمارية في مختلف الميادين .

فالظهير البربري والسياسة المتبعة من طرف فرنسا في هذا المجال، كانت من بين الأسباب الرئيسية لظهور الحركة الوطنية وتطورها، وبلورة مشروعها السياسي، والذي ظهر جليا وبوضوح في وثيقة المطالبة بالاستقلال يوم 11 يناير 1944.

رغم كل هذه التطورات، فقد استمرت السياسة البربرية واستمرت المحاكم العرفية في الاشتغال إلى غاية الحصول على الاستقلال، وكان أول إجراء قام به جلالة المرحوم السلطان محمد الخامس، إلغاء التشريع العرفي والمحاكم العرفية.

تمثل السياسة البربرية إحدى ثوابت السياسة الاستعمارية، وهي التفرقة بين السكان والنخب على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والتشريعية واللغوية والاثنية. ومن بين العناصر التي تقوم عليها هذه السياسة، الاستقطاب لبث التفرقة عن طريق التهديد والاستعمال الوحشي للآلة العسكرية، والحصار والرشاوى وشراء الذمم، وخلق مصالح مشتركة لإحداث تصدع في الجبهة.

فهرس المحتويات:

التصميم: 2
I.التنظيم الاجتماعي و حركة الهجرة..... 3
II.الاحلاف القبلية والسياسة المخزنية..... 6
1)الأحلاف القبلية : حلف آيت عطا وآيت يفلمان 7
2)الانتجـاع وحركـة الهجـــرة..... 10
3)السياسة المخزنية..... 12
III.المولى سليمان وزاوية إمهواش..... 15
1)نفوذ الزاوية وسط قبائل آيت أومالو..... 15
2)السياق التاريخي للعلاقات بين المخزن والزاوية 17
3)السياسة الدينية والقبلية للمولى سليمان و الاصطدام مع أبي بكر إمهواش..... 18
IV.التشريع العرفي والحركة الوطنية..... 23
1).السياســـة البربريـة..... 24
2)ردود الفعل..... 28
فهرس المحتويات:..... 31